

(المحاضرة الرابعة)

• ظهور محمد علي وتأسيس الدولة المصرية الحديثة:

بعد ان انسحب الفرنسيون من مصر عاد العثمانيون يمارسون سلطتهم هناك عن طريق واليهم خورشيد باشا ولكن الشعب المصري اخذ يلتفت حول السيد عمر مكرم ابرز زعيم قاد حركة مقاومة الفرنسيين وعندما حاول خورشيد باشا فرض ضريبة جديدة نشبت ثورة عارمة في مصر لغرضين رئيسيين.

أولهما: التخلص من الحكم العثماني لنضج الوعي القومي بسبب الصراع الدامي الذي خاضه الشعب المصري مع الفرنسيين لأكثر من ثلاث سنوات

ثانيهما: التخلص من الضرائب الباهظة التي فرضها الالي العثماني على التجار وأصحاب الحرف فأثقلت كواهلهم فضلا عن الاستغلال البشع الذي واجهه الفلاحون وهم السواد الأعظم من أبناء الشعب.

رفض الشعب دفع الضرائب الجديدة وأقفلت المحلات ولجا الناس الى الجامع الازهر وفشلت كل محاولات خورشيد باشا في التفاهم مع المشايخ وان لا بد له من التراجع امام الاجماع الشعبي فقرر اعفاء الفقراء من الضريبة ولكن عمر مكرم قال له ان ارباب الحرف والصناعات اصبحوا فقراء كذلك دعا عمر مكرم يوم ١٢ أيار سنة ١٨٠٥ الى عقد مجلس يحضره القاضي وقادة المقاومة للبحث في الأوضاع الجديدة وقد بعث الوالي من جانبه بمندوبين خمسة لحضور الاجتماع وانعقد المجلس في وضع كانت الجماهير فيه تطوف الشوارع والازقة معلنة معاداتها للعثمانيين واسفر الاجتماع عن التوقيع على وثيقة تضمنت مطالب الشعب بعثوا بها الى الوالي ومما جاء فيها:

١ - عدم السماح للجنود بدخول مدينة القاهرة بسلاحهم

٢ - عدم فرض اية ضريبة ما لم تتل موافقة قادة المقاومة

رفض الوالي هذه المطالب ولكن الشعب قرر عزله فعقد زعماء المقاومة اجتماعا في دار ضابط عثماني من اصل الباني جاء الى مصر مع القوات التي أرسلها السلطان لإخراج

الفرنسيين منها عام ١٨٠١ اسمه محمد علي وكانت له علاقات طيبة بقيادة الشعب من المشايخ والتجار. وقد تحدث في الاجتماع عمر مكرم ودعا الى تعيين وال جديد ووقع الاختيار على محمد علي وكتبوا وثيقة بتاريخ ١٣ أيار ١٨٩٥ جاء فيها: "تم الامر بعد المعاهدة والمعاهدة على سيرة بالعدل وإقامة الاحكام والشرائع وانه متى خالف الشروط عزلوه واخرجوهم وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الان" وبعد ان لاحظ السلطان العثماني نمو دور الشعب وقوته التي أوصلت محمد علي الى مركز الولاية اضطر الى المصادقة على هذا التعيين في تموز سنة ١٨٩٥.

اعتمد محمد علي في البداية على زعماء الشعب وكان عليه ان يواجه فلول الغزو البريطاني للشواطئ المصرية سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال فريزر وكان فريزر على اتفاق مسبق مع قسم من قادة المماليك المناوئين لمحمد علي وتقدمت القوات البريطاني الى القاهرة فاصطدمت بالقوات المصرية التي تحركت لمواجهةها فهزمت في المعركة واضطرت الى الانسحاب وعقد الصلح مع محمد علي.

• اعمال محمد علي في مصر ونتائجها

لاحظ محمد علي نزوع اتجاهات الوعي الوطني الى الاستقلال فلم ير بدأ من السير في هذا الاتجاه سيرا واعيا مسلما بتفاصيلها مدركا ابسط وادق حقائقها واذ كان لا بد من الاستقلال فلا بد من بناء الدولة القادرة على حماية الاستقلال ومن هنا بدأت جهوده لجعل مصر دولة حديثة واهم ركيزة اعتمد عليها الجيش لكونه الدعامة الأولى للدولة فهيا كل دوائره واجهزته لتقوية الجيش والاسطول وادخل الأسلحة الحديثة وامر بتطبيق نظم التدريب العصرية واستعان بضابط فرنسي اسمه (سيف) عُرف بعد ذلك (بسليمان باشا الفرنسي) لتنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي كما أسس عدد من مصانع المدافع والبنادق واشترى عددا من السفن من الدول الاوربية فأنشأ ترسانة كبرى في الإسكندرية وارسل عدد من الشبان لدراسة فن بناء السفن في أوروبا .

بعدها اهتم بالدعامة الثانية للدولة وهو التعليم بالتوسيع والتنويع فأنشأ التعليم على شكل هرمي فبدأ بالتعليم العالي لحاجته المباشرة اليه في بناء جيشه وحكومته وقد امده الازهر بعدد كبير من الشبان المتعلمين تعليما دينيا تقليديا ممن كان عندهم استيعاب ما يلقى عليهم من الدروس في مواضيع جديدة وكانت اهم مشكلة في التعليم هو لغة التدريس لان اكثر المدرسين كانوا من الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية وكانت الدولة تدفع للتلاميذ مرتبات شهرية تشجيعا لهم على المواظبة والاستمرار وكان التعليم في عهد محمد علي مجانيا وأول مدرسة انشأت هي مدرسة الهندسة تلتها الطب ومدارس أخرى للصيدلة واللغات والصنائع والزراعة وبرز دور المعلم في نشر الوعي والثقافة وانشأ إدارة خاصة للمدارس سميت بـ (ديوان المدارس) تشرف على التعليم في البلاد.

وقد ضمت البعثة الأولى التي أرسلها محمد علي سنة ١٨١٣ الى الدول الاوربية والى فرنسا خاصة عددا من الطلاب الازهريين كان بينهم العالم المصري الكبير (رفاعة رافع الطهطاوي) الذي أدى دورا كبيرا في نهضة مصر الحديثة فقد جمع بين الثقافتين العربية والاوربية ونشر عددا من الكتب التي سجل فيها انطباعاته من الحضارة الاوربية وقد

شجع عددا من طلبته في مدرسة اللغات على ترجمة كثير من الكتب من الفرنسية الى العربية.

لقد كان لنظام التعليم الذي انشاه محمد علي أثر كبير بظهور طبقة المثقفين التي ساهمت في يقظة مصر والوطن العربي وبلغ عدد الطلاب المرسلين الى اوربا (٣١٩) طالبا وهو عدد كبير لم تفكر فيه اية دولة شرقية بإرسال طلابها الى اوربا.

كما انشا محمد علي (مطبعة بولاق) وهي من اقدم المطابع في الوطن العربي وقد قدمت هذه المطبعة الكثير من الكتب المختلفة باللغة العربية وكانت الحكومة تبيعها بأثمان زهيدة حتى تؤمّن لها الانتشار بين القراء في مصر وسائر البلدان العربية وتولت طبع جريدة الحكومة الرسمية (الوقائع المصرية) وهي اول جريدة تصدر في مصر باللغة العربية ولقد ساهمت مطبعة بولاق في دفع حركة التأليف والنشر ليس في مصر وحدها بل في الوطن العربي كله.

شجع محمد علي الزراعة ووسع نظام الري وادخل محاصيل جديدة وسعى في زيادة أخرى كالقطن والنبيلة والتوت وقصب السكر.

صيرّ محمد علي الدولة. المالك الوحيد لجميع أراضي البلاد فاخذ أراضي المماليك واستولى على أراضي الأوقاف وألغى نظام التزام الأرض الذي كان سائدا قبله ووزع الأرض على الفلاحين فأعطى كلا منهم خمسة افدنة لاستثمارها بحسب توجيهات الحكومة ودفع الضرائب المفروضة عليها وتؤخذ منه اذا عجز الفلاح عن استغلالها او عجز عن دفع ضرائبها وقد حددت الحكومة لكل منطقة من الأرض أنواعا معينة من المحاصيل الزراعية وتعهدت الحكومة بتسليم هذه المحاصيل بأسعار معينة ثم تتولى هي بيعها للتجار الأجانب وغيرهم.

اما الصناعة فقد اقام محمد علي على بعض الصناعات الضرورية في مصر محاولا تقليل الاعتماد على الدول الاوربية في شراء السلع المصنوعة فأنشأ مصانع للغزل والنسيج والسكر وسبك الحديد وغير ذلك وقد حققت صناعة الانسجة المصرية نجاحا كبيرا ليس في مصر وحسب بل وفي كثير من البلدان العربية كما اشتهرت الغزول المصرية في اوربا.

كما اتسعت تجارة مصر في عهد محمد علي لأنشائه اسطولا مصريا وتوسيعه ميناء الإسكندرية فأصبحت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر ومياه شرق البحر المتوسط كما اعيد فتح الطريق البري بين القاهرة والسويس وانشأت المحطات التجارية على الطريق وقد احتكرت الحكومة تجارة كثير من السلع ولعل القطن والبن والنيلة في مقدمتها.

ان سياسة محمد علي في مصر اثارت مخاوف السلطان العثماني وسخطه لأنها كانت محفزة لسكان ولايات الدولة العثمانية على الاخذ بوسائل التقدم ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم ولهذا ظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي غير ان محمد علي استمر بسياسته التي املتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية.

ان تفكير محمد علي ببناء دولة مصرية حديثة قاده بالضرورة الى تتبع الارتباطات الاستراتيجية (السوقية) لمصر بالأطراف المحيطة بها وهب بمجملها عربية وابرزها:

١. ارتباط مركز مصر السوقي (الاستراتيجي) بالسودان وبنهر النيل واحتمال تهديد هذا المركز في حالة سيطرة دولة أخرى على السودان وتحكمها في نهر النيل.

٢. وقوع مصر على البحر الأحمر والخوف من امتداد النفوذ البريطاني اليه.

٣. أهمية الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط (بلاد الشام) لكونه جبهة مصر الشمالية ومحور الخطر العثماني الى مصر.

كان محمد علي يرى في بريطانيا الخطر الذي يهدده من جهتي السودان والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية كما ان بريطانيا بقت تتحين الفرص لاحتلال مصر واستعمارها وبعد ان اخافها نشاط محمد علي في نقل مظاهر التطور الحضاري الأوربي الى مصر، وتفكيره في تحويل الوكن العربي الى مركز قوة لما يتمتع به من مزايا استراتيجية (سوقية).

• حروب محمد علي واتساع رقعة دولته:

أرسل محمد علي استجابة لطلب السلطان محمود الثاني قواته بقيادة ابنه إبراهيم الى شبه جزيرة العرب لمقاتلة الحكام الوهابيين واحتلال عاصمتهم الدرعية وذلك في سنة ١٨١٨ واضعاف نفوذهم. والحركة الوهابية حركة سياسية ذات طابع ديني، مؤسس مذهبهم محمد عبد الوهاب وقد حدثت مأساة كبرى على ايدي الوهابيين فقد اعتقد هؤلاء بان زيارة الاضرحة وتقديسها لا تتفق مع مذهبهم وافكارهم فاضمروا العداة لكل من مذهب يقدر مرقد الائمة والصالحين وقد حدثت عام ١٨٠١ ان اقتربوا من كربلاء واغتنوا فرصة ذهاب معظم سكانها للزيارة الى النجف فهاجموا المدينة بغته وقتلوا ما لا يقل عن ألف من سكانها وجرّدوا ضريح الامام الحسين (ع) من التحف التي لا تثمن ثم قفلوا راجعين.

ولما تمت السيطرة لمحمد علي على اغلب المناطق في شبه الجزيرة العربية اخذ يوسع نفوذه باتجاه السودان فأرسل ١٨٢٠ قواته بقيادة ابنه إسماعيل فأسس المصريون مدينة الخرطوم لتكون عاصمة للسودان كما ادخلوا كثيرا من مظاهر الحياة الحديثة الى السودان.

اتجهت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا الى بلاد الشام فسيطرت عليها سنة ١٨٣١ ونظم إبراهيم باشا الأوضاع العامة هناك فنجح بتوطيد الامن واسس المدارس وكان أثر المعلم واضحا في اعداد أجيال وتربيتها وتهيئتها لمواجهة المخاطر التي تهدد كيان الامة وموروثها الحضاري كما اهتم بالمستشفيات وساعد على تنشيط حركة التجارة واستمرت سيطرته حوالي عشر سنوات وبدا محمد علي يفكر بالتوجه نحو العراق وقد اتخذها التوجه الاشكال التالية:

١. تشجيع النزعات الاستقلالية عن الدولة العثمانية في العراق وتقديم المساعدات والدعم لها وربطها بالسياسية المصرية.
٢. كان لإبراهيم باشا مراسلات مع جهات رافضة للسيطرة العثمانية في العراق وهم المماليك الذين يحكمون العراق آنذاك.

٣. توثيق العلاقة مع القبائل الساكنة حول بغداد وقبائل المنتفق ومع ان طموح محمد علي لم يتعد حدود التهديد للسلطان العثماني او بريطانيا إزاء العراق الا ان ذلك يتصل بطبيعة حركة محمد علي فيما يتعلق بالخطط الاستراتيجية (السوقية) المستقبلية.

لقد ادركت بريطانيا خاصة والدول الاستعمارية عامة خطورة هذا التحرك فبريطانيا كانت ترى في مصر الممر الى الهند وقد تعززت قناعتها هذه منذ احتلال فرنسا لمصر وروسيا تريد منع المصريين بالتقدم شرقا لان هذا التقدم يفوت عليها مصالحها في الوصول الى المياه الدافئة ويهدد استقرارها السياسي ونشطت بريطانيا في تنشيط مخاوف بلاد فارس من نجاح محمد علي في إقامة دولة كبيرة لما له تأثير على مطامعها التوسعية في الخليج العربي ولذلك اتفقت مصالح هذه الدول على إيقاف نشاط محمد علي حتى فرنسا التي رأت في محمد علي فرصة جديدة للمجابهة مع بريطانيا وجهزته بالخبراء والضباط وشتى المساعدات الا انها وقفت في وجهه في النهاية لأنها خشيت على مصالحها من قيام دولة قوية متطورة.

اخذت بريطانيا تحاصر حكم محمد علي فحرضت المشايخ في الخليج العربي عليه وحاولت منع أي اتصال بين مصر والعراق واحتلت عدن وعادت الحرب بين القوات المصرية والقوات العثمانية وحدثت (معركة نصيبين) التي انتصرت فيها القوات المصرية وعقب هذه الانتصارات قررت بريطانيا ان تقف بشدة بوجه محمد علي وفي سنة ١٨٤٠ وقعت بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية على (معاهدة لندن) التي تقرر فيها مصير محمد علي فنزلت قوة عثمانية بريطانية في ساحل شمالي بيروت مما اضطر الجيش المصري للجلاء عن سوريا ووقع محمد علي على معاهدة ١٨٤٠ التي فرضتها عليه الدول الاوربية واجبرته بها على الانكفاء داخل حدود مصر ويكون الحكم وراثيا في اسرته ولتحقيق هذا الغرض الاستعماري سبق ان اقترحت بريطانيا إقامة كيان صهيوني في فلسطين ليكون حدا فاصلا بين سوريا ومصر يفسد احباط أي محاولة وحدوية في المستقبل

وكانت السياسة الاستعمارية ترمي الى تحقيق غرضين رئيسيين

أولهما: ضرب الاستقلال الوطني لمصر والبدء بعملية احتواء اقتصادي وذلك عن طريق ربط الاقتصاد المصري بالاقتصاد الاستعماري وضرب إصلاحات محمد علي الاقتصادية.

ثانيهما: محاولة انهاء دورها بأبعادها عن البلدان العربية الشقيقة وتشجيع النزعات الإقليمية.

• حركة الإصلاحات العثمانية وأثرها على الوطن العربي

❖ الإصلاحات العثمانية:-

نتيجة لتدهور أجهزة الحكم العثمانية وظهور بوادر الانحلال في مؤسسات الدولة العثمانية سيما العسكرية منها وتكرر قيام الثورات والانتفاضات في مختلف الولايات والهزائم العسكرية التي منيت بها جيوشها لوجود فئة من المتأمرين بالحضارة الاوربية الحديثة ظهر اتجاه جديد في الدولة وإعادة الحيوية اليها وانقسم دعاة الإصلاح الى فئتين:

الأولى: رأى ان العلاج بتطبيق الشريعة الإسلامية والتقاليد العثمانية الاصلية.

والثانية: اعتقدت بان اصلاح الدولة العثمانية يستلزم تبني الأنظمة الأوربية المعاصرة.

ويظهر ان نجاح البلدان الاوربية آنذاك في العلوم العسكرية وفي تطوير أنظمتها الاقتصادية رجح كفة هذه الجماعة ولذا فقد صارت حركة الإصلاح تستهدف تطبيق الأنظمة الأوربية الحديثة في مختلف مجالات الحياة.

اقتصرت الإصلاحات الأولى على الجيش ثم شملت بعدئذ النواحي المتعلقة بالإدارة والتعليم وقد بدأ اصلاح الجيش العثماني في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) فنظم البحرية والمدفعية وفقا للأساليب والأسلحة الاوربية مستعينا بطائفة من

الضباط والخبراء الاوربيين اما الانكشارية فلم يتعرض لهم آنذاك لقوتهم وقدرتهم على مقاومة الإصلاح.

جاء قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ليؤكد ضرورة الإصلاح خاصة بعد غزو الفرنسيين لمصر وهي ولاية عثمانية اذ رأى العثمانيون تفوق الجيوش الفرنسية على جيوشهم وجيوش المماليك معا. ويلاحظ في الوقت نفسه ان طليعة الأفكار التي وصلت الى العاصمة العثمانية في بدء حركة الإصلاحات اشتملت على مبادئ الثورة الفرنسية.

لقد دعا السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) عددا من قادة الفكر والسياسة في الدولة العثمانية لمعرفة آرائهم في معالجة أسباب الضعف في الدولة العثمانية فأكدوا جميعا ضرورة الإصلاح العسكري وفي سنة ١٧٩٢ صدرت سلسلة من التعليمات والأنظمة الجديدة عرفت باسم (النظام الجديد) وقد تضمن هذا النظام خطوات لإصلاح الإدارة والمالية، ومن اهم الإصلاحات تكوين جيش جديد من المشاة والبحرية يدرّب وفقا للأساليب الحديثة. فافتتحت لذلك مدارس عسكرية وبحرية يدرس فيها خبراء فرنسيون.

ولما جاء السلطان محمود الثاني اعتقد ان اصلاحا عاما لا يمكن ان يتم قبل التخلص من أعداء الإصلاح وفي مقدمتهم الانكشارية وأول عمل إصلاحى قام به محمود الثاني هو تحسين المدارس العسكرية الجديدة التي أسسها سليم الثالث والتي كانت ترمي الى تدريب الضباط والجنود بالأساليب الاوربية الحديثة بغية تشكيل جيش جديد منهم، وهكذا استعان محمود الثاني بالجيش الجديد بالانقضاء على الجيش الانكشاري والغائه.

انجز السلطان محمود الثاني برنامج إصلاحات وضعت فيه الخطوط الرئيسية التي سار عليها مصلحو الدولة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي ففي حقل التعليم أسس محمود الثاني عددا من المدارس الابتدائية والثانوية الجديدة فكان للمعلمين حضورا في عملية الإصلاح كما أسس مدرسة للحقوق وأخرى للطب وفي عهده ارسل حوالي مائة طالب للدراسة في اوربا وظهرت في عهده جريدة الحكومة الرسمية (تقويم الوقائع) فضلا عن ذلك شهدت فترة حكمه إعادة النظر بنظم الإدارة المركزية للدولة فأنشأت

وزارات للأوقاف والخارجية والداخلية وأسس مجلس وزراء على غرار ما هو موجود في الدول الأوروبية ورغبة منه في زيادة الكفاءة الإدارية وافتتح أول بريد بين (اسكدار وازمير).

وأسس مجلس احكام عدلي منح وظائف شبه قضائية معتمدة على القوانين الفرنسية وأصدر قانونا للعقوبات كما ادخل الزي والنظام الاوربي في الجيش العثماني واسس مجلس (شورى عسكري) لتنظيم الأمور العسكرية والغيت الطريقة البكتاشية والطريقة مولوية لارتباط هاتين الطريقتين الصوفيتين بالتنظيمات الانكشارية.

وبعد وفاة محمود الثاني سنة ١٨٣٩ خلفه السلطان عبد المجيد الأول وقد بدأت مرحلة جديدة من حركة الإصلاحات في الدولة العثمانية امتدت حتى سنة ١٨٧٧ عرفت باسم (التنظيمات) وقد بدأت هذه الحركة بإعلان السلطان عبد المجيد البيان الإصلاحى المسمى (خط شريف كولخانة) وقد تأثر هذا السلطان بعدد من المصلحين الذين شغلوا منصب الوزارة أمثال رشيد باشا وغيره كما شهدت هذه المرحلة الى جانب ضغط المعارضين للإصلاح تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية لقد كان هدف (خط شريف كولخانة) ضمان حقوق جميع افراد الدولة العثمانية بصرف النظر عن معتقدهم الديني او اختلافهم القومي ومما جاء فيه: "ان الحكومة ستقف ضد أي تهديد يقع على حياة او كرامة او ملكية الافراد العثمانيين وان المتهمين سواء كانوا مجرمين عاديين ام سياسيين سيحاكمون بصورة علنية" ومن ناحية الضرائب اعلن البيان انه ستوزع هذه الضرائب اعلن البيان انه ستوزع هذه الضرائب في المستقبل بصورة عادلة على جميع طبقات الشعب وان طريقة جمع الضرائب ستتحسن". وأخيرا تعهد خط شريف كولخانة بتنظيم التجنيد وتحديد فترة الخدمة العسكرية الاجبارية للمجندين.

صدر في عهد السلطان (عبد المجيد) كذلك مرسوم إصلاحى اخر باسم (خط همايون) في سنة ١٨٥٦ اكد فيه مجددا على المساواة بين الافراد وأشار الى ان القوانين ستطبق ضد الذين يميزون بين الاختلاف في الدين واللغة او العنصر واعترف البيان بحاجة الدولة الى إصلاحات شاملة واكد ان الخطوات الفعلية ستتخذ لإعادة تنظيم الشرطة والمحاكم وإدارة الولايات وجمع الضرائب وإصلاح التجارة الداخلية والمواصلات وتنظيم

الأحوال المالية بواسطة ميزانية سنوية وكذلك بواسطة تأسيس المصارف وعلى اية حال فان معظم بنود المرسومين السابقين لم تنقل الى حيز التطبيق بل بقيت حبرا على ورق في كثير من انحاء الدولة العثمانية.

بعد وفاة السلطان (عبد المجيد) سنة ١٨٦١ خلفه اخوه (عبد العزيز) الذي صدر في عهده مرسوم الإصلاحات والتنظيمات الجديدة سنة ١٨٧٤ وقد اكد حاجة الدولة الى الاستمرار في حركة الإصلاح وخاصة فيما يتعلق بتأمين حقوق الأهالي والتزام العدل في معاملة جميع الرعايا بدون استثناء وتنظيم إدارة الحكومة وقد اكد المرسوم الجديد على الغاء السخرة وإساءة استعمال السلطة والسعي لإصلاح الزراعة والتجارة وقد شهدت الدولة في عهد السلطان عبد العزيز تقدما ملموسا في الأمور العسكرية وازدياد التوسع في التعليم ولعل من ابرز القوانين التي صدرت في هذه الفترة قانون الولايات الجديد لسنة ١٨٦٤ وبموجب هذا القانون قسمت ولايات الدولة الى ثلاثين ولاية وتنقسم الولاية الى الوية يرأس كل منها متصرف وتنقسم الولاية بدورها الى اقصية يرأس كل منها قائم مقام وتنقسم الاقصية الى نواحي وقرى ويرأس الناحية موظف يسمى (مدير الناحية).

كما نص هذا القانون على تأليف مجالس محلية فقد جعل لكل ولاية مجلس ولكل لواء مجلس وكذلك بالنسبة للقضاء والناحية ويشترك الأهالي في ادارة أمور الولاية بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الادارية المختلفة وكان القصد من وراء هذا القانون ربط الولايات كلها ربطا منظما بالحكومة المركزية في إسطنبول.

جاء بعد السلطان عبد العزيز السلطان (عبد الحميد الثاني) الذي قام بإعلان الدستور نتيجة جهود جماعة المصلحين وعلى راسهم مدحت باشا الذي عينه السلطان عبد الحميد الثاني رئيسا للوزراء وقد جاء في الدستور انه يهدف للمساواة المدنية والسياسية لجميع العثمانيين ويحدد مسؤوليات وواجبات الوزراء والموظفين ويضمن استقلال المحاكم وينص على تثبيت ميزانية متقنة للدولة ويفرض تطبيق النظام اللامركزي في ادارة الولايات كما تضمن مادة تنص على تشكيل برلمان يتألف من هيئتين هما مجلس (المبعوثان النواب وجلس الاعيان الشيوخ).

ابتدأ البرلمان العثماني جلساته سنة ١٨٧٧ ولكن اعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية اعطى للسلطان عبد الحميد الفرصة المناسبة لتحقيق ما يبتغيه حيث اعلن تأجيل جلسات البرلمان لأجل غير مسمى ثم اصدر سنة ١٨٧٨ مرسوما يحل البرلمان وإلغاء الدستور مؤقتا بحجة الظروف الاستثنائية التي تجتازها الدولة واخذ السلطان عبد الحميد يضيق ذرعا بالمصلحين الذين باتوا يهددون مستقبل العرش والامبراطور فابعد الكثير منهم الى خارج البلاد مما اضطر (مدحت باشا) الى الاستقالة والذهاب الى المنفى في اوربا ثم الى السجن في الطائف بتهمة الاشتراك في قتل السلطان عبد العزيز فحكم السلطان عبد الحميد الدولة حكما استبداديا مدة اثنتين وثلاثين سنة ازدادت سياسة الاضطهاد والبطش بالعناصر المثقفة والمناوئة للحكم المستبد اذ ظهرت تنظيمات سرية داخل الجيش العثماني وكان حصيلة العمل السري في داخل الدولة وخارجها قيام (انقلاب سنة ١٩٠٨) قادته جماعة حزب الاتحاد والترقي فاضطر السلطان عبد الحميد الى إعادة العمل بالدستور واجتمع البرلمان وقام قادة الانقلاب بعزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ وتتصيب أخيه (محمد رشاد) الذي كان العوبة بيد جماعة (الاتحاد والترقي).

• اثر الاصلاح العثماني على البلدان العربية:

كانت مصر تتمتع باستقلال ذاتي فعلي منذ خضوعها لمحمد علي وبفضل اصلاحاته اصبحت مصر اول دولة حديثة في الوطن العربي لذلك فان حركة الاصلاح لم تكن بوحى من الدولة العثمانية.

اما شبه الجزيرة العربية فقد كانت ظروفها خاصة بسبب الصراع الداخلي بين الامراء والشيوخ المحليين. كان العثمانيون يتمتعون بنفوذ اسمي في الحجاز وحتى في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية لم يستطيعوا القيام باي اصلاحات بسبب ضعف نفوذهم من جهة ولتعارض الاصلاحات مع مصالحهم الخاصة من جهة اخرى وهذا ما كانت عليه اليمن ايضا ولهذا لم يكن غريباً عدم وجود مدارس حديثة في شبه الجزيرة العربية وان التعليم مثلاً ظل في رعاية رجال الدين وحتى النظام العثماني في الادارة والكمارك والذي طبق في الحجاز بقيت انحاء شبه الجزيرة العربية بعيدة عنه بينما كان اثر لحركات اصلاح العثماني في العراق وسوريا.

❖ العراق:

طلب السلطان محمود الثاني بعد ان ألغى الجيش الانكشاري من ولاته اتخاذ إجراءات مماثلة، ففي بغداد جمع الوالي داوود باشا قواته ومنهم الانكشارية وامر بتلاوة الارادة السلطانية القاضية بإلغاء الانكشارية فقابلها الجميع بالقبول والطاعة .

ثم قرر السلطان انهاء حكم المماليك في العراق فتم له ما اراد وعلى اثر ذلك عين في ولايات العراق عدد من الولاة حاول بعضهم امثال (رشيد باشا كوزلكلي) و(نامق باشا) القيام بإصلاحات تستهدف تحسين اقتصاديات البلاد فانشأ رشيد باشا شركة ملاحه واستورد باخرتين باسم بغداد والبصرة من بلجيكا وتوسعت تلك الشركة في عهد نامق باشا واطلق عليها اسم (الادارة العثمانية النهرية) وبنى لها معملاً لتصليح البواخر حتى انها صارت تتنافس شركة لينج البريطانية.

لم تظهر اثار حركة الاصلاح العثماني في العراق بشكل واضح الا في عهد الوالي مدحت باشا الذي تولى حكم العراق بين سنتي ١٨٦٩-١٨٧٢ اذ بدأت مدحت باشا اعماله في العراق بإصلاح الادارة الحكومية وقد استند في عمله هذا على قانون الولايات العثماني كما زوّد مدحت بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في الولايات الثلاثة الموصل وبغداد والبصرة وقد تجلت اجراءاته في الاصلاحات الادارية والاقتصادية وخاصة حل مشاكل الاراضي وكانت الغاية الرئيسية من وراء تلك الاصلاحات العمل على ربط الولايات الثلاث مع بعضها وتقوية السلطة المركزية عليها

يعتبر (نظام الطابو) من ابرز اعمال مدحت باشا الادارية والاقتصادية وكان الهدف الرئيسي لهذا النظام محاولة ايجاد حل لمشكلة العشائر ووضع حد لثوراتها المستمرة وتحويل افرادها لمواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الري وقد اثمرت سياسة توطين العشائر التي اتبعتها مدحت باشا في اماكن متعددة ولكن سرعان ما ادت هذه السياسة الى تحول شيوخ العشائر الى ملاكين للأراضي ولم تعد العلاقات داخل العشيرة تعتمد على المساواة بين افرادها بل اصبح مقدار ما يملك الشخص المعيار الاساس للتمييز بينهم مما اتاح للحكومة الاستعانة ببعض رؤساء العشائر لتحصيل الضرائب وبذلك حققت الحكومة الهدف السياسي الذي توخته من اجراء توطين العشائر وهو استطاعة الحكومة بجبي الضرائب وتفرض الجندية عليهم بشكل اسهل وهم مستقرين.

اما في ميدان المواصلات اعاد مدحت باشا تشكيل الشركة الحكومية المسماة (الادارة العثمانية النهرية) واصلح بواخرها القديمة واشترى بواخر جديدة ذات حمولة كبيرة كما اسس لهذا الغرض محطات وقود في مسقط وعدن وبندر عباس وبوشهر وبعد هذا صارت البواخر العثمانية تنتقل بين اونه واخرى بين البصرة واسطنبول عبر قناة السويس التي افتتحت سنة ١٨٦٩ وعلى صعيد النقل الداخلي انشا مدحت باشا (ترامواي) بين بغداد والكاظمية.

كما انشا المدارس الحديثة واول مدرسة كانت هي (المدرسة الرشدية) العسكرية قبل فيها الطلاب المتخرجون من المدارس الدينية وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات يدرس في اثائها الطلبة اللغتين العربية والتركية والتاريخ والجغرافية والحساب والخط والدين وقام بعد

هذا بإنشاء (المدرسة الإعدادية العسكرية) ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية ويحق لخريجي هذه المدرسة الالتحاق بالكلية العسكرية في اسطنبول حيث يدرسون فيها ثلاث سنوات يتخرجون من بعدها ضباطا في الجيش العثماني. وبالإضافة الى هاتين المدرستين العسكريتين انشا مدحت باشا (مدرسة الصناعة) ومدة الدراسة فيها أربع سنوات يتلقى الطلبة في اثنائها دروسا تثقيفية عامة يتخصصون في احدى المهن كالنجارة والخياطة والطباعة كما فتح (المدرسة الرشدية الملكية) ومدة الدراسة فيها أربع سنوات يوظف خريجوها في الدوائر الحكومية للقيام بالأعمال الكتابية.

ان اهتمام مدحت باشا بنشر التعليم في العراق انعكس من خلال تزايد النسبة المئوية للمتعلمين ففي سنة ١٨٥٠ لم تكن نسبتهم تزيد عن نصف بالمئة من سكان المدن في حين اصبحت النسبة سنة ١٩٠٠ تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمائة.

لقد كان مدحت في طليعة الولاة العثمانيين الذين اهتموا بأمور الطباعة والصحافة فقد اسس مطبعة حكومية وأصدر (جريدة الزوراء) اول صحيفة ظهرت في العراق وكانت الزوراء تصدر مرتين في الاسبوع باللغتين التركية والعربية وقد استمر صدورها حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٩١٧ وفي عهد مدحت باشا كذلك تم بناء مدينتي الناصرية والرمادي ومن اعماله بنى دورا للحكومة واسس مزرعة نموذجية وارسل المهندسين لتنظيم الري وبنى المستشفيات وياشر بتطبيق نظام التجنيد الالزامي.

❖ سوريا:

عندما صدر قانون الولايات سنة ١٨٦٤ ضمت بيروت الى ولاية دمشق التي عرفت آنذاك باسم (ولاية سوريا) ولكن في سنة ١٨٨٨ اعادت الدولة تشكيل ولاية مستقلة مركزها بيروت واصبح لكل ولاية مجلس ادارة يتألف من كبار الموظفين مع عدد من الوجوه والاعيان يمثلون مختلف سكان الولاية، بينما بقي القاضي الشرعي بمركزه السابق فقد حددت صلاحية المحاكم الشرعية فمنعت من سماع القضايا الجنائية والحقوقية واقتصرت على النظر بأمور الاوقاف والتركات والزواج والطلاق والنفقة وشكلت محاكم جديدة مستقلة للنظر في الامور التي ليس من اختصاص المحاكم الشرعية كما شكلت محكمة تجارية في حلب

واخرى في بيروت اضافة الى محاكم بداءة في الولايات. في سنة ١٨٨٩ منح امتياز بإنشاء ميناء بيروت كما منحت الامتيازات لشركات اجنبية ببناء طرق ومد جسور حيث لم يكن في سوريا ابدأ طريق معبد او سكة حديد باستثناء طريق العربات بين دمشق وبيروت كما ومد اول خط حديد في سوريا بين يافا والقدس وفي العقد الاول من القرن العشرين بدأ العمل بطريق الخط الحديد بين دمشق والمدينة المنورة ووصلت خطوط البرق دمشق وحلب وبدأت سوريا تتمتع بخدمات البريد حيث إنشأت دائرة بريد حكومية في حلب.

وتوالي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسيس البلديات في اكثر المدن السورية، صدر سنة ١٨٧٥ قانون انتخاب المجالس البلدية وتلاه بعد عامين قانون البلديات.

وعندما عين مدحت باشا واليا على سوريا (١٨٧٨-١٨٨٠) سعى الى تشجيع الحركة التعليمية واليه يعود الفضل في توسع انتشار التعليم الوطني اذ لاحظ انه لم يكن للحكومة سوى بضعة مدارس ابتدائية يقرأ فيها الاطفال القران الكريم بينما كانت مدارس الارساليات التبشيرية متقدمة، لذلك فكر مدحت باشا بإصلاح المدارس وقدمها على كل اصلاح وشكل لذلك جمعية من العلماء اخذت تجمع الاعانات من الاهالي وقد انتشرت فروع هذه الجمعية التي عرفت باسم (جمعية المقاصد الخيرية) في جميع انحاء الولاية وقد استطاعت هذه الجمعية انشاء عدد من المدارس للبنين والبنات.

تأسست اول مطبعة رسمية في الشام في بيت الدين عاصمة متصرفية جبل لبنان وقد اصدرت المطبعة (جريدة لبنان الرسمية) وكان اول كتاب نشرته هذه المطبعة هو كتاب كليلة ودمنة سنة ١٨٦٨، وفي دمشق اسست مطبعة صدرت عنها جريدة سوريا باللغتين العربية والتركية وهي اول جريدة رسمية تصدر في سوريا وقد اسس والي حلب جودت باشا مطبعة حكومية اصدرت جريدة (الفرات الاسبوعية) وقد شهدت سوريا في منتصف القرن التاسع عشر حركة علمية نشيطة وقد حظي التراث العربي بنصيب كبير في هذه الحركة.

• الحركة السنوسية والحركة المهدية:

شهد الوطن العربي منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي حركات دينية سياسية تجاوزت اسلوب الدعوة المحض الى الاصلاح لتتبنى شكل الثورة المسلحة ضد النظم الحاكمة وضد التغلغل الاستعماري.

❖ الحركة السنوسية:

كانت الحركة السنوسية في بدء نشأتها طريقة صوفية تدعو الى احياء الاسلام في بساطته العربية والدعوة الى العمل الصالح المنتج، مؤسس هذه الحركة هو (محمد بن علي السنوسي) من مدينة مستغانم في الجزائر، وقد اقبل منذ حياته الاولى على العلم وادراك حاجة المجتمع العربي الاسلامي الى الاصلاح بعد ان طاف عدد من البلدان العربية وتألم لما اصبح به الغرب من تدهور في اوضاعهم العامة وحزت في نفسه انباء الغزو الاستعماري الاوربي لبعض الاراضي العربية وقد اشعرته هذه الاوضاع بضعف العرب والمسلمين اقتصاديا ودينيا واجتماعيا وبضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على مواجهة هذا التغلغل الاستعماري الذي احرز نجاحات متعددة وخاصة في المغرب العربي.

اكتسب محمد بن علي السنوسي ثقة الكثير من الشباب الين كانوا يتلقون العلم في جامع القرويين في فاس وقرر نشر دعوته الهادفة الى اقامة مجتمع جديد قوي مقتدر على مواجهة التحديات فتجول في الجزائر وليبيا ومصر وسافر الى بلدان المشرق العربي محاولا نشر آرائه في الاصلاح والتجديد وما لبث ان توجه الى الحجاز اثناء موسم الحج آملا في لقاء المسلمين من شتى ارجاء العالم ثم توجه الى مصر ثم طرابلس، وبنغازي فاستقر فيها سنة ١٨٥١ مؤسسا الكثير من الزوايا لتكون مراكز للعبادة والتعليم وتضم كافة جوانب النشاط والانتاج مما يدل على ان الحركة السنوسية لم تقتصر على التصوف والعبادة وكان على راس كل زاوية شيخ يوجه الاهالي ويحل مشاكلهم ويحثهم على مزاوله الانتاج الزراعي. لقد انتشرت الدعوة السنوسية في برقة ولكن السلطات العثمانية اخذت تتوجس خيفة من السنوسيين مما دعا السنوسي الى الانتقال من بنغازي الى واحة الجغبوب وسبب اختياره

هذه المنطقة يرجع الى انها أكثر توطأ وأسهل اتصالا بأنحاء أخرى من طرابلس وبرقة وفزان كما كانت مركزا كبيرا للقوافل مما يسهل عليه الاتصال بأنصاره ونشر دعوته، وهكذا لم يمض وقت طويل حتى انتشرت الدعوة السنوسية وكثر اتباعها ليس في المغرب العربي بل وحتى في شبه الجزيرة العربية.

وقد انشا في الجغبوب مدرسة كبيرة احتوت على مكتبة ضمت أكثر من ثمانية الاف كتاب وكانت غايته من ذلك اعداد اتباعه اعدادا يساعدهم على نشر الدعوة لم تكن الحركة السنوسية حركة دينية محضة انما كانت رد فعل مباشر ضد التغلغل الاستعماري.

كان السنوسي يعتقد بان تحرر العرب المسلمين من رقة السيطرة الاستعمارية الاوربية لابد ان يسبقه تجدد روحي كما انه سعى جاهدا الى توفير وتحسين سبل العيش لاتباعه ورغم تأكيد الحركة السنوسية على التعليم فقد ظل تقليديا لأنهم لم يدخلوا الدروس العلمية ولم يستطيعوا ان يحدثوا تغييرا في اساليب التفكير التي ورثها المسلمون عن عصور التدهور والانحطاط.

رفضت الحركة السنوسية منذ ظهورها الاعتراف بالسيطرة العثمانية وسعت الى انشاء دولة عربية ذات صيغة دينية وتحولت في عهد السيد محمد المهدي السنوسي الذي خلف اباه من حركة دينية صرفة الى منظمة دينية عسكرية سياسية قوية فرضت سلطانها وسيادتها على بعض المناطق لذا فان السنوسيين واجهوا ضغوطا عديدة فالعثمانيون بدأوا في ملاحقتهم مما اضطر زعيمهم الى ترك الجغبوب في سنة ١٨٩٤ الى واحة الكفرة، ولقد سبب ذلك اصطدامهم مع الفرنسيين المستعمرين الذين كانوا يتوسعون حول بحيرة تشاد وقد كانت نتيجة الصدام الذي حدث في سنة ١٩٠٠ ان انهزم السنوسيين وفي سنة ١٩٠٢ مات المهدي السنوسي فعاد اتباعه الى مقرهم في الكفرة في الوقت الذي بدا فيه الايطاليون غزوهم لطرابلس فشكل السنوسيين آنذاك عصب المقاومة ضد الغزاة لاسيما في برقة كما سترى كانت مقاومة المستعمرين الغزاة احد الجوانب المهمة في نشاط السنوسيين وهذا يجعلها مشابهة للحركة المهدية في السودان.

❖ الحركة المهديّة:

كانت الحركة المهديّة في بدايتها حركة دينية تدعو الى العمل الصالح والرجوع الى جوهر الاسلام وروحه ظهرت في السودان منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي لكن ظروفًا سياسية اقتصادية واجتماعية متدهورة واجهها المجتمع العربي جعلتها تتطور الى حركة سياسية تجديدية فهي كانت رد فعل كبير لفساد الادارة وتغلغل النفوذ البريطاني في السودان والعدوان الاجنبي في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي على شواطئ افريقيا الشرقية.

رغم ما تقدم في عهد محمد علي من الحاق السودان بمصر وتوحيدها معه ونشر الامن والاستقرار فيه وادخال اسباب المدنية الحديثة في ربوعه فإنشات مدينة الخرطوم وتأسست المدارس والمستشفيات ولكن السودان عانى في عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ كثيرا من العنت والجور.

لقد ظهر في السودان سنة ١٨٨١ رجل من السودانين اسمه محمد احمد الملقب بالمهدي استطاع تحشيد قوى الشعب في حركة مسلحة ففي ايلول ١٨٨٢ ضرب المهديون الحصار على الابيض عاصمة كردفان واستولوا عليها وسرعان ما انتشرت الثورة لتشمل السودان بأجمعه وفي تلك الفترة عين البريطانيون (كوردن) حاكما عاما على السودان فحاول مساومة المهدي بتعيينه سلطانا على كردفان واعلان فصل السودان عن مصر الا ان المهديين اكتشفوا هذه الخدعة وردوا على ذلك بحصار حول الخرطوم فتوجه جيش من مصر مؤلف من سبعة الاف جندي بقيادة ولسلي لإغاثة كوردن الا ان هذا الجيش فشل في الوصول الى الخرطوم التي حررها الثوار سنة ١٨٨٥ وقُتل كوردن اثناء عملية تحرير المدينة عاد ولسلي الى مصر واتم الثوار خلال العام نفسه تحرير السودان وتأسيس الدولة المهديّة التي عاشت حتى سنة ١٨٩٨ حين انتهت على يد الاستعمار البريطاني.